مُسرعاً حتى أتى دِمنةَ فحدَّثهُ بالحديثِ . فبينما هوَ عندَهُ إذ جاءَ فَيْجٌ[1] فانطلَقَ بدِمنةَ إلى المَجْمَعِ عندَ القاضي .

فلما مَثَلَ بينَ يَدَيِ القاضي اسْتَفتَحَ سيِّدُ المجلسِ فقال : يا دمنةُ قدْ أُنبأني عنْ خبرِكَ الأمينُ الصَّادقُ وليسَ ينبغي لنا أنْ نَفْحَصَ عنْ شأنِكَ أكثرَ منْ هذا لأنَّ العلماءَ قالوا : إنَّ اللهَ تعالى جعَلَ الدنْيا سبَباً ومِصْداقاً[2] للآخرةِ لأنها دارُ الرُّسلِ والأنْبياءِ الدَّالِّينَ على الخيرِ الهادِينَ إلى الجنةِ الدَّاعينَ إلى معرفةِ اللهِ تعالى ، وقدْ ثبَتَ شأنُكَ عندَنا وأخبرَنا عنْكَ مَنْ وَثِقْنا بقوْلِهِ ، إلاَّ أنَّ سيِّدَنا أمرَنا بالعَوْدِ الى أمْرِكَ والفَحصِ عنْ شأنِكَ وانْ كانَ عِنْدَنا ظاهراً بيِّناً . قال دِمنةُ : أراكَ أيهـــا القاضي لمْ تتعوَّدِ العدْلَ في القضاءِ ، وليسَ في عَدْلِ المُلوكِ دَفْعُ المظْلومينَ ومَنْ لا ذَنْبَ لهُ الى قاضٍ غيرِ عادلٍ بَلِ المُخاصَمَةُ لهمْ والذَّوْدُ[3] عنْ حقُوقهمْ ، فكيْفَ ترَى أنْ اُقْتَلَ ولمْ اُخاصَمْ وتُعجِّلَ ذلكَ موافقةً لهواكَ ولمْ تمضِ بعدُ ثلاثةُ أيامٍ ، ولكنْ صَدَقَ الذي قالَ إنَّ الذي تَعوَّدَ عمَلَ البِرِّ هيِّنٌ عليهِ عَمَلُهُ وإنْ أضرَّ بهِ .

---

١ — الفيج : هو الذي يدخل السجن ويخرج ويحرس وجمعه فيوج .

٢ — مصداقاً للآخرة : اي ما يصدقها .

٣ — الذود : الدفاع .

قال القاضي : إنا نجدُ في كتُبِ الاوَّلينَ أنَّ القاضيَ العـــدْلَ ينبغي لهُ أنْ يَعْرِفَ عَمَلَ المُحْسِنِ والمُسيءِ لِيُجازِيَ المحسنَ بإحْسانِه والمسيءَ بإساءتِه ، فإذا ذَهَبَ إلى هــذا ازْدَادَ المُحسنونَ حِرْصاً على الإحْسانِ والمُسيئونَ اجْتِناباً للذُّنوبِ ، والرَّأيُ لكَ يا دمنةُ أنْ تَنظُرَ الذي وقَعْتَ فيهِ وتَعْترفَ بذَنْبِكَ ، وتُقِرَّ بهِ وتتُوبَ ، فأجابهُ دِمنةُ : إنَّ صالِحي القُضَاةِ لا يَقطعون [1] بالظنِّ ولا يَعْمَلونَ بهِ لا في الخاصَّةِ ولا في العامَّةِ لِعِلْمِهِمْ أنَّ الظَّنَّ لا يُغنى منَ الحَقِّ شيئاً ، وأنتمْ إنْ ظَننتمْ أني مُجرمٌ فيما فعَلْتُ فاني أعلمُ بنفسي منكمْ وعِلْمي بنفسي يَقينٌ لا شكَّ فيهِ وعِلْمُكمْ بي غايةُ الشَّكِّ ، وإنمـــا قُبْحُ أمرِي عِنْدَكمْ أني سعَيْتُ بغيري [2] فما عُذْرِي عندكم إذا سعَيْتُ بنفسِي كاذِباً عليها فأسْلَمْتُها إلى القَتْلِ والعَطَبِ على معرفةٍ مني ببرَاءتي وسلامَتِي ممَّـــا قُرِفْتُ بهِ [3] ونفسي أعظَمُ الأنْفُسِ عليَّ حُرْمةً وأوْجبُها حقًّا ، فلوْ فَعلْتُ هذا بأقْصاكمُ وأدْناكمُ لَمـــا وسِعَني [4] في دِيني ولا حَسُنَ بي في مُرُوءَتِي ولا حُقَّ لي أنْ أفعلهُ فكيْفَ أفعلُهُ

---

١ – لا يقطعون : بمعنى لا يوقنون .

٢ – سعيت بغيري : اي وشيت به .

٣ – قرفت : اي اتهمت .

٤ – لما وسعني : اي لما جاز لي .

بنَفْسِي ، فاكْفُفْ أيها القاضي عنْ هذهِ المقالةِ فإنها إنْ كانتْ منكَ نصيحةً فقـــدْ أخطأتَ موْضِعَها ، وإنْ كانتْ خديعةً فإنَّ أقبحَ الخِدَاعِ ما نَظَرْتَهُ وعَرَفتَهُ منْ غيرِ أهلهِ ، معَ أنَّ الخداعَ والمكرَ ليْسَا من أعمالِ صالِحي القُضاةِ ولا ثِقاتِ الوُلاةِ .

واعلمْ أنَّ قولَكَ ممَّـــا يَتَّخذُهُ الجُهَّالُ والأشرارُ سُنَّةً [1] يَقتَدُونَ بهـــا لأنّ أمورَ القضاءِ يأخُذُ بصوابِها أهلُ الصَّوابِ ، وبخَطإِها أهلُ الخطأ والباطل والقليلُو الورَعِ وأنا خَائفٌ عليك أيها القاضي منْ مَقالتِكَ هذهِ أعظمَ الرَّزايا والبَلايا ، وليسَ من البـــلاءِ والمصيبةِ أنكَ لمْ تزَلْ في نفْسِ الملكِ والجُندِ والخاصةِ والعامّةِ فاضلاً في رأيكَ مُقْنِعاً في عدْلِكَ مَرْضِيًّا في حُكمِكَ وعَفافِكَ وفضلِكَ ، وإنما البلاءُ كيف انُسيتَ ذلك في أمري ، أوَ ما بلَغَكَ عن العُلماءِ أنهمْ قالوا مَنِ ادَّعى عِلْمَ ما لا يعلَمُ وشهِدَ على الغيبِ أصابهُ مـــا أصابَ البازِيارَ [2] القاذفَ زوْجةَ مولاهُ . قال القاضي : وكيف كان ذلكَ ؟

قال دمنةُ : زَعَمُوا أنهُ كان في بعضِ المدُنِ رجلٌ منَ المَرَازِبَةِ [3] مذْكورٌ ، وكانتْ لهُ امرأةٌ ذاتُ جَمـــالٍ وعَفافٍ وكان للرَّجُلِ

---

١ – سنة : طريقة .

٢ – البازيان : مربي البازي وجمعه بزاة .

٣ – المرازبة ج مرزبان : وهو رئيس الفرس .

بازيارٌ ماهرٌ خبيرٌ بعِلاجِ البُزاةِ وسياستِها ، وكان هذا البازيارُ عندَ هذا الرُجلِ بمكانِ خليلٍ بحيثُ إنهُ أدخلَهُ دارَهُ وأجلَسَه مع حَرَمِه فاتَّفقَ أنَّ البازيارَ رَاوَدَ زوجةَ مولاهُ عنْ نفسِهـــا فأَبتْ عليهِ وتَسَخَّطَتْ لذلكَ وتَمَعَّرَ[1] وجهُها واحْمَرَّتْ خجَلاً وزادَ امتناعُها عليهِ وحرَصَ عليها كلَّ الحِرْصِ وعَمِلَ الحيلةَ في بلوغِ غرَضِه منها وضاقتْ عليهِ أبوابُ الحِيَل فخرَجَ يوماً إلى الصَّيْدِ على عادتِه فأصابَ فَرْخَيْ بَبْغاءَ فأخذَهُما وجاء بهما إلى منزلِهِ ، فلما كَبِرَا فرَّقَ بينَهُما وجعَلَهُما في قَفَصَيْنِ وعلَّمَ أحدَهما أنْ يقولَ : رأيتُ منْ مولاتي ما يُخِلُّ بالعَفَافِ ، وعلَّمَ الآخرَ أن يقولَ : أمَّا أنا فلا أقولُ شيئاً . ثمَّ أدَّبَهُما على ذلكَ حتى أتْقناهُ وحذَقاهُ في ستة أشهُرٍ ، فلما بلَغَ الذي أرادَ منهما حَمَلَهُما إلى أُستاذِه فلمَّا رآهمـــا أعْجَبَاهُ ونطَقا بين يديهِ فأطرَباهُ ، إلا أنهُ لمْ يَعلَمْ ما يقولانِ لأنَّ البازِيَارَ كانَ قدْ علَّمَهُما بلُغَةِ البَلْخِيِّينَ .

وإنَّ المَرْزُبانَ أُعجِبَ منهما إعْجاباً شديداً وحَظِيَ البازيارُ عندهُ بذلكَ حُظْوَةً كريمةً فأمرَ امرأتَهُ بالاحْتياطِ عليهما والمراعاةِ لهما ففَعَلتِ المرأةُ ذلكَ ، فاتفقَ أنهُ بعدَ مدةٍ قَدِمَ على الرَّجُلِ قومٌ

---

١ – تمعر وجهه : تغير غيظا .

منْ عُظَماءِ بَلْخَ فتأنَّقَ لهم في الطعامِ والشرابِ وجمَعَ منْ أصنافِ الفواكهِ والتُّحَفِ شيئاً كثيراً وحضَرَ القومُ ، فلمَّا فرَغوا من الطعامِ وشرَعوا في الحديثِ أشارَ المَرْزُبانُ إلى البازيارِ أن يأتيَ بالبَبْغاتَيْنِ

الباز يفقأ عين البازيار بحضور الرجل وامرأته وضيوفهما (ش ٤٢)

فأحضَرَهُما ، فلما وُضِعَتا بين يديْهِ صاحَتا بما كانتَا عُلِّمَتاهُ فعرَفَ أُولئك العظماءُ ما قالتَا فنَظَرَ بعضُهم إلى بعضٍ ونكَسُوا رؤُسَهم حَياءً وخجَلاً فسألهمُ الرَّجلُ عمَّا تقولانِ ، فامتنَعُوا أنْ يقولوا ما قالتا فألحَّ

عليهمْ وأكثرَ السؤالَ عما قالتا ، فقالوا : إنما تقولانِ كذا وكذا وليسَ منْ شأنِنا أنْ نأكلَ منْ بيتٍ يُعْمَلُ فيهِ الفُجُورُ . فلمّا قالوا ذلكَ سألهمُ الرَّجُلُ أنْ يكلِّمُوهما بلسانِ البَلْخيَّةِ بغيرِ ما نَطقَتا به ففعَلوا ذلكَ فلمْ يَجدوهُما تَعْرِفانِ غيرَ ما تَكلَّمَتا به وبَانَ لهمْ وللجماعةِ حَصانةُ المرأةِ وبَراءتُها ممَّا رُمِيَتْ بهِ ووَضحَ كِذْبُ البازِيارِ . فأمرَ بالبازيارِ أنْ يَدْخُلَ عليهِ وكانَ على يدَيْهِ بازٌ أشْهَبُ [1] فصاحتْ بهِ امرأةُ المَرْزُبَانِ منْ داخلِ البيتِ : أيُّها العَدُوُّ لِنفْسِهِ أنتَ رأيتَني على ما ذكَرْتَ وعَلَّمْتَ بهِ البَبْغاتَينِ ؟ قال: نعمْ. أنا رأيتُكِ على مِثْلِ ما تقولانِ ، فوثَبَ البازِي إلى وجهِهِ ففقأ عينَهْ بمخالبِه فقالتِ المرأةُ : بحقٍّ أصابَكَ هذا إنهُ لجَزاءٌ منَ اللهِ تعالى لشَهادتِكَ بما لمْ تَرَهُ عينُكَ .

وإنما ضربتُ لكَ هذا المثَلَ أيها القاضي لتزدادَ علْماً بوَخامَةِ عاقبةِ الشهادَةِ بالكَذِبِ في الدنيا والآخرةِ ، فلما سَمِعَ القاضي ذلكَ منْ لفظِ دِمنةَ نَهَضَ فرفَعَهُ إلى الأسدِ على وجهه [2] فنظَرَ فيه الأسدُ ثم دعا أُمَّهُ فعرَضَهُ عليها فقالتْ حينَ تدَبَّرَتْ كلامَ دمنةَ للأسدِ : لقدْ

---

١ ــ الاشهب : من الالوان ما غلب بياضه على سواده .

٢ ــ على وجهه : أي على حكمه .

صارَ اهتمامي بما أتخوَّفُ منْ احتيالِ دمنةَ لكَ بمكْرِهِ ودَهائِهِ حتى يَقْتُلَكَ أوْ يُفْسِدَ عليكَ أمرَكَ أعظمَ منِ اهتمامِي بما سَلَفَ منْ ذنْبِهِ إليكَ في الغِشِّ والسِّعايَةِ حتى قتَلْتَ صديقَكَ بغيرِ ذنْبٍ ، فوقعَ قولُها في نفسِهِ فقال لها : أخبريني عنِ الذي أخبرَكِ عنْ دمنةَ بمـــا أخبرَكِ فيكونَ حُجَّةً لي في قتلِ دِمنةَ . قالتْ : لأكرَهُ أن أفشِيَ سِرَّ منِ استكْتَمَنِيهِ ، فلا يَهنِئُني سروري بقتلِ دمنةَ إذا تذكَّرْتُ أني استَظْهَرْتُ عليهِ برُكوبِ ما نهَتْ عنهُ العلماءُ منْ كشْفِ السِّرِّ ، ولكنِّي أُطالبُ الذي استوْدَعَنيهِ أنْ يُحالِلَني منْ ذِكْرِهِ لكَ ويقومَ هو بعلمِهِ وما سَمِعَ منه ، ثمّ انصرَفَتْ وأرسلَتْ إلى النَّمِرِ وذَكَرتْ له ما يَحِقُّ عليهِ من التزْيينِ للأسدِ وحُسْنِ مُعاونتِهِ على الحقِّ وإخراجِ نفسِهِ من الشهادةِ التي لا يكتمُها مثلُهُ مع مـــا يَحِقُّ عليهِ منْ نصْرِ المظلومينَ وتثبيتِ حُجّةِ الحقِّ في الحياةِ والمماةِ ، فإنّ العلماءَ قدْ قالتْ : منْ كتَمَ حُجَّةَ ميِّتٍ أخطأَ حُجتَهُ يومَ القيامةِ ، فلمْ تَزَلْ به حتى قامَ فدَخلَ على الأسدِ فشهِد عندَهُ بما سَمِعَ منْ إقرارِ دِمنةَ .

فلما شَهِدَ النَّمِرُ بذلكَ أرسلَ الفَهْدُ المسجونُ الذي سَمِعَ إقرارَ دمنةَ وحَفِظَهُ إلى الأسدِ فقال : إنّ عندي شهادةً فأخرجوهُ فشهِدَ على دِمنةَ بمـــا سمعَ منْ إقرارِهِ ، فقال لهما الأسدُ : ما مَنعكما أن تقُوما

بشهادتكما وقد عَلِمْتُما أمرَنا واهتمامَنا بالفَحْصِ عنْ أمرِ دمنةَ ، فقال كلٌّ واحدٍ منهما : قد عَلِمْنا أنَّ شَهادةَ الواحدِ لا توجبُ حُكماً فكَرِهْنا التعرُّضَ لغيْرِ ما يَمضي بهِ الحُكمُ ، حتى إذا شَهِدَ أحدُنا قامَ الآخرُ بشهادتِه ، فقَبِلَ الأسدُ قولَهُما وأمرَ بدِمنةَ أنْ يُقتَلَ في حَبْسِه فقُتِلَ أشْنعَ قَتْلةٍ .

فمنْ نظَرَ في هذا فلْيعلَمْ أنَّ من أرادَ منفعةَ نفسهِ بضَرِّ غيره بالخِلابَةِ [1] والمكْرِ فانهُ سيُجْزَى على خِلابتِه ومكْرِهِ .

---

١ – الخلابة ، بالكسر : الخديعة .